التراث العمراني الصحراوي و الهوية الثقافية للقصر العتيق بمدينة ورقلة
مقاربة سوسيو ثقافية

د: عبد الباسط هويدي
أ: فتيحة زايدي
قسم العلوم الاجتماعية– جامعة الشهيد حمة لخضر– الوادي–

****

ملخص الدراسة:

يعتبر العمران في الصحراء قديم قدم المجتمعات التي استوطنت الصحراء و من أبرز ما يميز النمط العمراني الصحراوي القصور فيعبر هذا الأخير عن مجموعة من السكنات المحصنة بأسوار عالية مغطاة على شكل متكتل و متجانس؛ بحيث يمثل مجتمع القصور في المناطق الصحراوية الجزائرية أنموذج يحافظ على الخصائص العمرانية و الاجتماعية و الثقافية التي تعبر عن حياة سكان هذه القصور فتعد هذه الأخيرة معالم أثرية. و مدينة ورقلة أحد المدن الجزائرية الصحراوية الغنية بالمعالم الأثرية و لعل أهمها القصور . و لمعرفة دور التراث العمراني الصحراوي في تماسك المجتمع في مدينة ورقلة جاءت هذه الورقة البحثية كأنموذج في مقاربة سوسيو ثقافية لتسلط الضوء على الهوية الثقافية لمجتمع القصر العتيق، ولا سيما معرفة أهم سمات هذا المجتمع و خاصة في الوقت الراهن و لمعرفة هذا عن قرب سيتم الإجابة على التساؤل التالي: ما هي مميزات الهوية الثقافية في القصر العتيق بمدينة ورقلة؟

الكلمات المفتاحية: التراث –العمران الصحراوي– الهوية الثقافية– القصر. .

مقدمـــة:

يعتبر التراث الثقافي من سجلات الإبداع في الأمة و ذاكرة لترسيخ قيمها و مقوما من مقومات هويتها الحضارية و الخصوصية التي تميزه بين الثقافات، و من أنسجة هذا التراث، العمران الذي يمثل أحد ركائز الفكر الإنساني الذي سعى الفرد من خلاله إلى التكيف مع العديد من الظروف الطبيعية و البيئية و الاجتماعية

يعد علم العمران بمثابة النافذة المفتوحة على حضارة الشعوب و أداة للتعبير الفكري و الثقافي و الحضاري و المحدد للنمط الحياتي و كيفية تنميته من جميع النواحي (الاجتماعية، الاقتصادية...) و بالتالي نجد لكل مجتمع حضارته التي تتمثل في قيمه العليا فالعمران والأسس العمرانية السليمة هي التي تستمد أصالتها من بيئتها فلكل مجتمع عاداته و تقاليده و بيئته الخاصة.

يمثل التراث العمراني أحد الرموز الأساسية لتطور الإنسان عبر التاريخ، و هو بذلك يعبر عن القدرات التي وصل إليها الإنسان في التغلب على الطبيعة التي يعيش فيها، والتراث يعني توريث حضارات السلف للخلف و لا يقتصر ذلك على اللغة أو الأدب و الفكر، بل يعم جميع العناصر المادية والوجدانية للمجتمع من فكر وفلسفة ودين وعلم وفن وعمران ؛ كما يعبر التراث كذلك على مجموع الثروات الموروثة عن الماضي من المعالم الطبيعية و المشيدة من طرف الإنسان، فنية كانت أو عمران أو عادات و تقاليد...

و يعد العمران أحد أهم العناصر الأساسية للتراث لكون تميزه عن غيره من العناصر التراث بوجوده المادي و هذا بوجود حضارات الأجيال السابقة بصورة مباشرة لا تقبل الشك أو الجدل، كما يبرز لنا تتابع الحضارات و القيم الحضارية و الاجتماعية و الدينية بين الأجيال.

حيث أن الفن العمراني الذي أخذ في الظهور من القرن الأول الهجري واستمر بعد ذلك لعدة قرون هو في حقيقته جوهره فن إسلامي خالص خاصة ما يتميز بها الجنوب الجزائري من قصور فتعد هذه الأخيرة تراث معماري فريد من نوعه، فهي تمثل لنا رموز و معالم حضارية هامة جدا؛ تترجم عمق تاريخ العمران الصحراوي وكما تعبر على مدى قدرة الانسان التي يقطن فيها على التأقلم، وقد عرفت هذه المعالم تطورات عديدة منذ العصر القديم ومازالت الى يومنا هذا.

فمن المعروف عن المدن الصحراوية أنها كانت مرآة تعكس الوجه الحقيقي للعمران الصحراوي بما تحتويه من قيم اجتماعية تستمد جذورها من تعاليم الدين وما اقتضته الظروف المناخية وتلبية متطلبات وحاجيات المجتمع؛ و لهذا جاءت هذه الورقة البحثية و في مقاربة سوسيو- ثقافية لتسلط الضوء على القصر العتيق بمدينة ورقلة، محاولة منا الإجابة على التساؤل التالي: ما هي مميزات الهوية الثقافية في القصر العتيق بمدينة ورقلة؟.

تحديد المفاهيم :

التراث:

التراث في معاجم اللغة العربية وفي الأدب العلمي العربي هو (ما ورثناه عن الأجداد) وأصلها من ورث يقول ابن منظور في لسان العرب المحيط، ورثه ماله ومجده وقال الله تعالى أخباراً عن زكريا ودعاءه إياه (هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب) أي يبقى بعدي فيصير له ميراثي ويقال (اورثه الشيء ابوه) أو (ورثه بعضا عن بعض قدما) أو اورثه (كابراً عن كابر) (1).

التراث هو كل ما وصل إلى أمّة من الأمم وشعباً من الشعوب ممن سبقوهم من الأجداد القدامى حيث يتضمن التراث المادي و غير المادي، من أبنية و عادات و تقاليد وغيرها.

العمران الصحراوي:

العمران من الناحية اللغوية مشتق من كلمة لاتينية (urbs) و التي تعني المدينة ويعد المهندس الإسباني (ildefons cerda) أول من استعمل كلمة (urbanisation) لما كان يتصوره كعلم للتنظيم المجالي للمدن.

اما في الاصطلاح إنه من الصعب إعطاء تعريف دقيق وشامل للعمران لكونه العامل الذي يشمل الدراسة في عدة مجالات من الحياة البشرية إلا أن هذا لا يمنع إعطاء تعريف فهو العلم الذي ينظم المدن عن طريق دراسة المفاهيم والتي تسمح بتكييف مساكن هذه المدن وفق حاجيات البشر بالاعتماد على مجموعة من التدابير الاقتصادية و الاجتماعية و البشرية، كما هو فن تهيئة المدن من أجل توفير ثلاث عناصر أساسية: السكن- العمل- الراحة و يمكن تلخيصه في البعد العمراني الهندسة المعمارية (2).

التعريف الإجرائي للعمران الصحراوي:

ذلك التنظيم المجالي الذي يهدف إلى إعطاء نظام معين للمدينة ذو طابع خاص ومميز والذي يمثل أساسا في القصر أو المساكن التقليدية و الواحة مشكلا بذلك هندسة معمارية أصيلة.

الهوية الثقافية:

الهوية هي مجموعة المميزات الجسمية و النفسية و المعنوية و القضائية و الاجتماعية و الثقافية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه و أن يقدم نفسه أن يتعرف الناس عليه، أو التي من خلالها يشعر الفرد بأنه موجود كانسان له جملة من الأدوار لوظائف والتي من خلالها يشعر بأنه مقبول و معترف به كما هو من طرف الآخرين أو من طرف جماعته أو الثقافة التي ينتمي إليها(3).

(إدوارد تايلور) عرف الثقافة: "على أنها ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة و المعتقدات والفنون و الأخلاق و القانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع (4).

و يعرفها (مالك بن نبي):"أنها مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته لتصبح لاشعورية تلك العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه و شخصيته، وعندما تتكون ثقافة المجتمع فإنها تخلق تاريخه حيث تولد علاقة بين الثقافة و التاريخ إذ ليس ثمة تاريخ بلا ثقافة فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتما تاريخه" (5).

التعريف الاجرائي للهوية الثقافية:

الهوية الثقافية هي الإحساس بالانتماء إلى جماعة أو أمة لها من الخصائص والمميزات الاجتماعية والثقافية والنفسية و التاريخية التي تعبر عن نسيج أو كيان ينصهر و يندمج في بوتقة المجتمع بأكمله و بذلك يصبحون منسجمين ومتفاعلين تحت وطأة هذه الخصائص و المميزات، الهوية هي السمة الجوهرية العامة للثقافة من الثقافات.

القصر:

يعرف القصر لغويا بأنه المنزل، و قيل كل بيت من حجر، وسمي كذلك لأنه تقصر فيه الحريم أو تحبس (6).

القصر مأخوذ من كلمة "اغزم" و التي تعني البرج أو المكان المحصن في اللغة الامازيغية وأصبحت متداولة تحت اسم "قصر" أو "كصر"، ومن هذا المنطلق أصبح يعرف القصر بالتجمعات السكنية المحصنة داخل سور (7).

التعريف الإجرائي للقصر:

يعبر القصر عن مجموعة من السكنات محصنة بأسوار عالية، و هذه الأنماط من السكنات تكون مغطاة و على شكل متكتل و متجانس، و تتميز هذه القصور بشوارعها الملتصقة و ممراته االضيقة و هي ممرات مغطاة و امتداد للمباني المجاورة وهي أيضا أمكنة بها الظل و الهواء المنعش خاصة في فصل الصيف.

خصائص الطابع العمراني الصحراوي:

يقوم العمران الصحراوي على أساس متطلبات الإنسان الأساسية عاكسا بذلك القيم الإجتماعية و الموروث الثقافي المستمد من الحضارة الإسلامية و هي بذلك يشترك في عدة عوامل نوجزها في التالي (8):

العضوية: إن المدينة تتأثر بسكانها و تحمل المجتمع كالجسد الواحد المترابط الأعضاء و المتكامل الوظائف و هي تتكون أساسا من ثلاثة عناصر تتمثل في :

المركز: و هو الجامع الذي يمثل قلبها النابض و له دورا في توحيد الأعضاء و كما يقوم باستقطابها و هيكلتها و تنظيم حركتها.

الأحياء: و هي بمثابة جسدها الذي يستمد منه المركز طاقته و ضرورة وجوده و ماهيته.

المسالك و الأزقة (في شكل أقواس): و هي بمثابة الشرايين التي لا تتم الحركة إلا بها و تقوم بإيصال الأعضاء مع بعضها البعض.

القصور: عبارة عن نسيج مبني ككتلة موجودة ومتجانسة تربط بين أجزائها شبكة ممرات تأخذ شكل شرايين و تتوسط واحات نخيل و تتمثل هذه الأخيرة في غابات النخيل التي توجد بجانب النسيج العمراني حيث تزخر بثروة هائلة من النخيل وفي بعض الأحيان تحيط بالنسيج العمراني، ولقد تلعب الدور الرئيسي في جلب الغذاء، وتوفر مناخ منعش و جو لطيف، كما تعمل على كسر الرياح ومنع زحف الرمال إلى القصر.

لمحة عن ولاية ورقلة و القصر العتيق:

ولاية ورقلة هي إحدى أهم ولايات الجنوب الجزائري لما تحتويه من ثروات هامة تجعلها شريان الإقتصاد والتنمية في الجزائر، تقع جوهرة الواحات في الجنوب الشرقي من الوطن و تغطي مساحة تصل إلى 163.233 كلم^2 ؛ أي بنسبة 06,85 % من المساحة الإجمالية للقطر الجزائري، تبعد ولاية ورقلة عن العاصمة الجزائرية بنحو 900 كلم. يحدها من الشمال ولايتي الجلفة و الوادي و من الشرق جمهورية تونس ومن الجنوب ولايتي تمنراست و إيليزي و من الغرب ولاية غرداية. تتكون من عشر دوائر تضم واحد و عشرين بلدية.

بلدية ورقلة أحد بلديات ولاية ورقلة، تأسست بلدية ورقلة سنة 1932 و هي تتربع على مساحة تقدر بـ: 2887 كلم^2، تبعد عن العاصمة بـ 793 كلم^2 و كان عدد سكانها في بداية التقسيم الإداري الجديد سنة 1984 يقدر بـ 65400 نسمة ليرتفع عدد سكانها إلى غاية 2012/12/31 تاريخ آخر إحصاء 142303 نسمة، تقع في الجنوب الشرقي من البلاد و في الشمال الغربي للولاية يحدها من الشمال بلدية انقوسة و من الجنوب بلدية الرويسات و من الشرق بلدية عين البيضاء و سيدي خويلد و من الغرب بلدية زلفانة، تتميز بمناخ ذو طابع صحراوي حار صيفا و شديد البرودة شتاءا يمتاز بقلة الأمطار و درجة رطوبة منخفضة. و تضم هذه البلدية مجموعة من مناطق (تجمعات سكانية): بني ثور المخادمة، سعيد، حي النصر، القصر العتيق.

و يعد القصر العتيق أحد المعالم الأثرية بالولاية، يتربع على مساحة تقدر بثلاثين هكتار، يتميز بشوارعه الملتصقة و ممراته الضيقة، و هي ممرات مغطاة و امتداد للمباني المجاورة و هي أيضا أمكنة بها الظل و الهواء المنعش خاصة في فصل الصيف و أماكن للاجتماعات وما يميز منازل القصبة دهاليزها الباردة في فصل الصيف الحار.

مقاربة سوسيو ثقافية للقصر العتيق بمدينة ورقلة:

لكل منطقة من المناطق طابعها العمراني، هذا ما يجعلها تختلف عن بقية المناطق، بحيث يعبر الطابع العمراني عن مجموعة الصفات المركبة التي تميز العمران في علاقته مع الموقع و التاريخ و البعد الاجتماعي و الثقافي؛ فالمقصود بالبعد الاجتماعي هو دراسة التأثيرات والعلاقات الإنسانية المتبادلة الناتجة عن كون الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع العيش إلا في جماعة، فهو يقضي معظم وقته معهم و على علاقة معهم وطابع الإنسانية يعود إلى مشاركته في المجتمع ومساهمته في تيار الحركة الاجتماعية بكل

مقوماتها الثقافية من عادات و تقاليد ودين والتي يكتسبها من المجتمع (9)؛ و يتمثل البعد الثقافي في صياغة النظام الاجتماعي والاحتفاظ بوجوده استنادا إلى الاعتراف بالخبرات السابقة و تراث الماضي الذي يزودنا بأنماط السلوك و نماذج الفعل الإنساني، فأسندت الحياة الثقافية الاجتماعية إلى ثقافتين أساسيتين:ثقافة مادية: من جهة تنسيق التكنولوجيا والاقتصاديات، ثقافة لامادية: كالقيم والمعتقدات والأخلاق(10).

و عليه فتحديد هوية منطقة من مناطق و تناول مسألة النوعية الحضرية و مميزاتها يكمن في بعدان أساسيان؛ الأول البعد المادي الذي يعتمد على المكان و البيئة و المحيط و الثاني البعد الثقافي الذي يضم المجتمع و الأنشطة و السلوكات و غيرها.

و بالرغم من صعوبة المناخ و الطبيعة وجود ورقلة و القصر العتيق في العرق الشرقي الكبير إلا أن سكان هذه المنطقة تحدو هذه الظروف و حولو الصحراء بعبقريتهم إلى عمران ساحر محيط بواحات النخيل؛ و بذلك حدث تزاوج بين قساوة الطبيعة و شجاعة العنصر البشري الذي عمر في هذه المنطقة، فنحت بذلك نمط حياته و تفكيره و ملامح عمرانه مستخدما في ذلك موارد متاحة خصوصا الجبس الذي يعتبر مادة أساسية في شكل البناء و كل هذا من أجل التكيف مع طبيعة و حرارة الجو فهي تتميز بإمتداد أزقتها الضيقة و الملتوية و كثيرة الانعراج و هذا لكسر حركة الرياح من جهة و تعديل درجة الحرارة بما توفره من ظلال.

فالزائر لولاية ورقلة يلتمس من خلال طابعها العمراني عراقة هذه المنطقة، و تتجلى هذه العراقة في التراث العمراني فهو إنعكاس للبيئة الجغرافية و صورة من صور التجانس بين الطبيعة و مظاهر التماسك الاجتماعي بين أفرادها؛ ما هذا إلا انعكاس و تجسيد و تسجيل مرئي، للحوار بين ثقافة الإنسان و الجماعة و البيئة العمرانية، فالمجال

السكني و تصميمه يتأثران بالقيم الاجتماعية والثقافية لمجتمع و أيضا من الناحية الأخرى، فان تصميم البيئة العمرانية هو أيضا يستطيع أن يؤثر في سلوكيات وثقافة أفراد المجتمع.

و تعتبر الفلاحة المورد الاقتصادي الأساسي للسكان القصر العتيق لتلبية حاجياتهم الأساسية وذلك للطبيعة الجغرافية و الظروف المناخية للمنطقة، و يعتمد في سقيها على المياه الجوفية و التي تعد روح الفلاحة بواسطة نظام السقي بالسواقي، ويبدأ الموسم الفلاحي بداية من 15 أكتوبر من كل سنة إلى غاية أواخر ديسمبر واهم المحاصيل الزراعية التي يتم إنتاجها في المنطقة وبالدرجة الأولى هي التمور بكل أنواعها.

وبالرغم من رقمنة اجتاحت كل المجالات و كذلك دخول عوامل التحضر؛ إلا أن مجتمع القصر العتيق بمدينة ورقلة، لا يزال صامدا أمام هذه العوامل و مزال يحافظ و يتمسك ببعض عناصر ثقافته التقليدية في جميع هذه المجالات، فعلى سبيل المثال نجده لا يزال يحافظ على عاداته و تقاليده الأساسية أثناء الأفراح مع وجود شيء من التحديث و إدخال عادات جديدة، فالتويزة بالرغم من أنها تقتصر على مجالات محددة إلا أنها لا تزال موجودة في أوساط مجتمع القصر في البناء و تنظيف الإحياء و المساجد و جني التمور و الأعراس الجماعية و غيرها من الأمور، و نجد كذلك الزي التقليدي فإن نساء هذه المنطقة مازلن يلبسن هذا الزي لكن يقتصر الأمر على النساء المتقدمات في السن؛ بحكم أن الأغلبية و خاصة الفتيات الآن خرجن للعمل و التعلم، ما أدى بهن إلى التخلي على هذا الزي؛ غير أنه يرتدينه في المناسبات فقط. و نفس الشيء ينطبق على الرجال لكن القيمة الاجتماعية لزي التقليدي لا تزال كما هي مثل البرنوس والسروال

العربي عند الرجل و الحلي و الملحفة عند المرأة، و أما بخصوص الأكلات التقليدية فمجتمع سكان القصر مازال يحافظ عليها إلى يومنا هذا.

فعليه نستنتج مما سبق أنها توجد علاقة وثيقة الصلة بين الثقافة و المجتمع و العمران، فتعبر الثقافة عن الهوية الثقافية للمجتمع، كما ان العمران هو وسيلة الحفاظ على ملامح المجتمعات.

إلا أن مؤخرا التطور الحاصل في حياتنا المعاصرة يتعارض في الظاهر من حيث المبدأ مع بقاء التقاليد المحلية والخصوصية الثقافية و هذا راجع إلى الرقمنة و التكنواوجيات الحديثة، إننا لا ننكر هذا و لكن التراث العمراني للقصر العتيق مازال محافظ على الهوية الثقافية للمنطقة و لاسيما حفاظهم على العادات و التقاليد و سبب ذلك يعود إلى أن القصر العتيق مازال قائما و أهلا بالسكان.

وفي مايلي بعض الصور التي تعبر عن القصر العتيق بمدينة ورقلة و الهوية الثقافية:

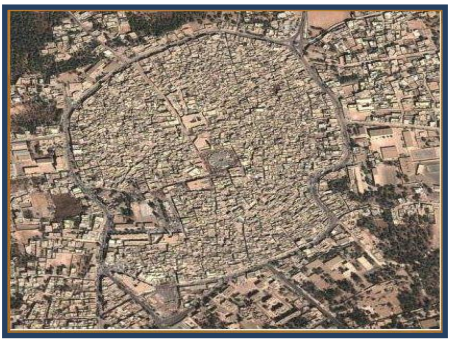

2004/10/06

2004/09/06

الخاتمة:

الإنسان في كل المجتمعات البشرية بعد استقراره في أي مكان، يسعى إلى تسخير معطيات المكان في تحقيق متطلبات العيش فالعلاقة بين الإنسان و المكان هي علاقة تفاعلية قائمة على أساس قانون الفعل ورد الفعل، و لكون القصر العتيق بمدينة ورقلة له هويته الثقافية التي تنبع من خصوصية المكـــان؛ ما يظهر أكثر كما رأينا مما تقدم في الارتباط الجذري بين الهوية الثقافية و الهويـــة المعمارية، حيث لا تقتصر على التفاعل بين الإنسان و المكان و تأثير الإنسان على المكان فحسب، بل إن المكان يحفر في الإنسان خصائصه وملامحه.

و من هذا المنطلق فإن ما يقوم به الإنسان في المكان من نشاطات ثقافية و عمرانية، و بقدر ما يتنامى هذا التفاعل يتنامى معه شعور الارتباط بالمكان متمثلاً في السلوكيات و القيم و الاتجاهات المتوالدة عبر التاريخ الإنساني مثل: المحبة، الاعتزاز، الولاء، الانتماء للمنطقة، و لهذا فإن مواصلة الإنسان لعمليات البناء المادي و الفكري و إعطاء صورة مشرفة للمكان؛ ما هو إلا دلالة على إيجابية التفاعل بينه و بين المكان و بالأخص بينه و بين هويته و هكذا يتم تعزيز انتماء الهوية المعمارية بالهوية الثقافية.

و يتجلى لنا مما تقدم أن التراث العمراني للقصر العتيق بمدينة ورقلة، كان نتيجة تفاعل مشترك بين االفرد و تأثير الطبيعة على نمط الحياة السائدة؛ و بالتالي بيان كيف استطاع الإنسان في المنطقة أن يكون قادرا على أن يطوع الطبيعة أو على الأقل أن

يتعامل معها بما يعكس جانبا من شخصيته و ثقافته المتميزة ذات الصلة بواقع ما أحاط به مقدما بذلك انموذجا الهوية ثقافية متميزة بطابع عمراني محافظ أصيل.

الهوامش:

1. متاح على:
https://www.facebook.com/egyptian.school.preservetioan/posts/1454628744795893، يوم 2016/09/15، على الساعة 3:45.
2. مريم لمام: **العمارة الصحراوية و انماطها الاجتماعية دراسة سوسو انثروبولوجية**، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات،جامعة غرداية، العدد 15،2011،ص 220.
3. مسلم محمد: **الهوية في مواجهة الاندماج**، دار قرطبة، الجزائر،2009، ص 89.
4. الصاوي علي السيد: **نظرية الثقافة**، دار المعرفة للطباعة والنشر و التوزيع، كويت، 1997، ص9.
5. السويدي محمد: **مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته**، المؤسسة الوطنية للكتاب والطباعة و النشر والتوزيع، الجزائر، 1991، ص 68.
6. حملاوي علي: **نماذج من قصور منطقة الأغواط– دراسة تاريخية و أثرية**، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية–الجزائر، 2006، ص15.

7. بزضيك عبد الناصر:**التراث المعماري بالجنوب المغربي**، مجلة كان، دورية الكترونية ربع سنوية، عدد6، ديسمبر 2009،ص24.

8. بوساحة نجاة و زايدي فتيحة:**الطابع العمراني الصحراوي بين الاصالة و المعاصرة –مقاربة سوسيو ثقافية لولاية وادي سوف**، ملتقى دولي حول تحولات المدينة الصحراوية،جامعة قاصدي مرباح ورقلة،يومي 3-4 مارس 2015.

9. السيد الحسيني: **المدينة دراسة في الاجتماع الحضري**،(دط)،دار المعرفة، القاهرة،1981، ص 91.

10. **مرجع نفسه**، ص 93.